

الفصل 06

هجمات الحادي عشر من سبتمبر: نموذج لفشل القيادة

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر مباشرةً، تحدث الجنرال المتقاعد ويزلي كلارك إلى تيم روزيرت من محطة إن بي سي الإخبارية عن مكالمة هاتفية تلقاها بعد التفجيرات، وفيها حث المتصل الجنرال كلارك على التصريح بأن الهجوم جاء من العراق بتوجيهات من صدام حسين. والمعروف عن الجنرال كلارك أنه لا يتلقى أوامر من أشخاص مجهولين، لكنّه هذه المرّة شعر بحب الاستطلاع، فسأل المتصل أن يعطيه دليلاً على هذا الاتهام، لكنّ المتصل أنهى المكالمة من دون إعطاء أي دليل. ومن الواضح أنّ الجنرال كلارك فكّر طوال سنوات عدّة في دافع الحرب على العراق؛ إذ قال في خطاب ألقاه في تكساس عام 2006م: «والآن، قد تتساءلون: لماذا أعود إلى التاريخ القديم؟ والجواب هو أنه ليس تاريخاً قديماً؛ لأننا ذهبنا إلى الحرب في العراق للتستر على إهمال القيادة الذي أفضى إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وهي حرب لم يكن لزاماً علينا أن نخوضها، هذه هي الحقيقة. لقد خضت حرباً عدّة، وأنا لا أُصدّق أسباب هذه الحرب؛ لأنّه لا يتميّن عليك أن تخوض حرباً ما لم يوجد أي بديل ألّبتة ألّبتة»¹²⁷.

إذن، قال الجنرال كلارك إنّ الحرب على العراق هدفت إلى تشتيت انتباه الشعب الأمريكي الغاضب بعيداً عن فشل القيادة قبل الحادي عشر من سبتمبر، وهو ما يشير إلى الخلافات بين القيادات العسكرية العليا. وأنا أتفق تماماً مع كل ما قاله، إلا أنّني أضيف إلى استنتاجاته أمراً

آخر، هو اعتقادي أنه عند إضافة نظريته في إهمال القيادة إلى تحذيرات فريقى مكتب مكافحة الإرهاب في أغسطس عام 2001م، فإننا سنتوصل إلى تفسير متماسك لهجمات الحادي عشر من سبتمبر، مفاده أن السماح بهجوم على أرض سيادية من أرض الولايات المتحدة ليس تفكيراً عاقلاً، ومن الواضح أنه كذلك، دعونا ننظر إلى قاموس مفردات مسؤولية القيادة:

— القيادة (وزارة الدفاع): تشمل القيادة، والسُّلطة، والمسؤولية في الاستخدام الفاعل للموارد المتوافرة، وفي التخطيط لحشد القوات العسكرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وضبطها، والتنسيق بينها من أجل ضمان صحة الأفراد المكلفين، وعافيتهم، وانضباطهم، ومعنوياتهم¹²⁸.

— الإهمال: هو الفشل في ممارسة الحذر الذي يمكن أن يتسلح به الشخص الحصيف في مثل هذه الظروف.

والسؤال الآن هو: كيف نُقيّم إهمال القيادة إذا حدث حقاً؟

توجد ثلاثة براهين على حدوث هذا النوع من الإهمال.

توجد ثلاثة مستويات من البراهين لدعم ما قاله الجنرال كلارك من أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر حدثت نتيجةً لإهمال القيادة، الذي سهّل - في رأي كثير من الأمريكيين - مخطط الحرب. يتعلق البرهان الأول باستخدام رئيس الأركان الموارد العسكرية المتوافرة لإفشال الهجوم على الأرض الأمريكية؛ سواء أحمّدت هذه الموارد بطريقة صحيحة أم لم تُحمّد.

لنتذكّر أولاً، وقبل كل شيء، أن القيادة الجوية لأمريكا الشمالية (نوراد) كانت قد أجرت تدريبات عسكرية للرد على الهجمات المتوقعة الموجهة إلى بنايات رئيسة، بما في ذلك مركز التجارة العالمي، في العامين السابقين لهجمات الحادي عشر من سبتمبر¹²⁹. في أحد التدريبات العسكرية نُفّذت الطائرات الحربية تمريناً وهمياً لإسقاط طائرة فوق المحيط الأطلسي، يُفترض أنها كانت محملةً بأسلحة كيميائية سامة، وكانت تتجه إلى هدف داخل الولايات المتحدة. وفي إنذار افتراضي آخر، كان الهدف وزارة الدفاع (البنتاغون)، وقد توقف التمرين بعد الإعلان أن البلاغ كان كاذباً.

والفكرة هنا أنَّ القيادة الجوية لأمريكا الشمالية (نوراد) قد أجرت تدريبات لاعتراض هجوم على الأرض الأمريكية، مثل هجمات الحادي عشر من سبتمبر تمامًا. والطريف في الأمر أنَّ وزارة الدفاع نظمت تدريبات عسكرية بعدما كشفت الاستخبارات العسكرية خطة كبيرة لاختطاف طائرات تجارية؛ بغية استخدامها مقذوفات جوية لضرب مركز التجارة العالمي. هل يبدو لك الأمر مألوفًا؟

كانت خطة الهجوم تسمى (بروجكت بوجنكا)، وقد أعدّها رمزي يوسف، المخطط الرئيس للهجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م؛ لتحقيق حلمه في تدمير البرجين، وقد اعتُقل رمزي يوسف في الفلبين عام 1995م، ثم سُلم إلى الولايات المتحدة، وحُكِم عليه بالسجن مدى الحياة عام 1996م. كان المتآمر معه الشيخ عبد الرحمن، رجل الدين المصري المتطرف، الذي دعا إلى إسقاط الرئيس حسني مبارك.

تبَيَّن من التحقيقات أنَّ رمزي يوسف كان من بين قيادات تنظيم القاعدة، المخططين لمؤامرة الحادي عشر من سبتمبر. لقد كان شخصيةً تتقن فن التخطيط، وكانت لديه مواهب استثنائية في نشر الفوضى والدمار، وهو يجيد لغات عدَّة، ويحمل شهادة في الهندسة الكهربائية من جامعة سوانسيا في ويلز.

التحق رمزي بتنظيم القاعدة عام 1988م، وتخصص في صنع المتفجرات، وكان قد وُلِد في قرية على الحدود الأفغانية الباكستانية لعائلة عاشت الأجواء الثقافية التي أنتجت المتشدين الإسلاميين الذين جندتهم واشنطن، ودربتهم، ومولَّتهم لقتال القوات السوفيتية في أفغانستان.

كان رمزي يوسف هو الذي أعدَّ خطة هجمات الحادي عشر من سبتمبر، من مخبئة في مانايلا، التي فر إليها بعد تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993م. كانت خطة (بوجنكا) تهدف إلى اختطاف إحدى عشرة طائرة تجارية في يوم واحد، ثم استخدامها صواريخ لضرب البيت الأبيض، ومقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في لانغلي بولاية فرجينيا، ورموز وطنية بارزة أخرى، بما فيها مركز التجارة العالمي.

وكانت الشرطة الفلبينية قد حققت إنجازاً كبيراً عندما افتحمت اجتماعاً لإرهابيين مسلمين في مانيلا عام 1995م، وشكّت أنّ صانع المتفجرات الزائر هذا ربما يكون متورطاً في هجمات إرهابية محلية عدّة.

اعتقلت الشرطة رمزي يوسف، وصادرت جهاز الحاسوب الخاص به، واستعانت بخبير حاسوب محلي لفك ترميزه، واستطاعت بذلك اكتشاف خطة (بوجنكا).

وبالرغم من هذا الاكتشاف، فإنّ خطة رمزي يوسف الشيطانية لم تكن سرّاً؛ فقد كشف عنها في محاكمة نيويورك عام 1996م، في قاعة المحكمة الفيدرالية التي لا تبعد كثيراً عن مركز التجارة العالمي.

وقد وصف فينيس كانيسترو، المدير السابق لقسم مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات الأمريكية، هذه الخطة بأنّها «طموحة جداً ومعقدة، ويصعب تنفيذها، ولا شبيه لها في العمليات الإرهابية الأخرى التي نعرفها»¹³⁰؛ وظلت خطة (بوجنكا) في سبات سنوات عدّة.

ولكنّ ما حدث في ربيع عام 2001م، هو أنّ الاستخبارات الأمريكية حصلت على معلومات مفادها أنّ الإرهابيين ينوون تنفيذ هجوم شبيه بخطة (بوجنكا)، وقد رفعت درجة الاستنفار إلى أعلى مستوى، حتى إنهم أمروني بالبحث عن أي خيط يُفضي إلى معلومات عن التنفيذ، يمكن العمل على أساسها.

في الوقت نفسه، كانت القيادة الجوية لأمريكا الشمالية (نوراد) تُخطط لإجراء مناورات في كندا وألاسكا، على بُعد آلاف الأميال من الهدف المفترض الذي حُدّد في مدينة نيويورك، وقد أُطلق على هذه المناورات اسم (عملية اليقظة الشمالية)¹³¹، وتزامنت مع مناورة عسكرية سوفيتية قرب ألاسكا، وكان جزء منها يشمل محاكاة سلاح الجو الأمريكي لحماية الأجواء الأمريكية الشمالية كما لو كانت روسيا تهاجم الولايات المتحدة¹³²، وكان من المقرر إجراء هذه المناورات الحربية أيام (10-14) من شهر سبتمبر.

أعلنت قيادة سلاح الجو حالة الاستنفار القصوى في مختلف أنحاء الولايات المتحدة؛ لحماية الأجواء الأمريكية في تلك الأيام.

كانت القيادة الجوية لأمريكا الشمالية (نوراد) قد دربت أفرادها على خطة (بوجنكا) هذه مدّة سنتين.

ومع ذلك، فإنَّ المبرر لحالة الاستنفار القصوى لم يُذكر للعسكر، والحقيقة أنَّ القيادة الجوية لأمريكا الشمالية (نوراد) اعترفت أنَّها أمرت القوات الأمريكية بإعلان حالة الاستنفار فقط بسبب المناورات العسكرية الروسية. ولم يُحذّر الجيش الأمريكي من احتمال تنفيذ مشروع (بوجنكا)، بالرغم من تزايد التحذيرات في أوساط الاستخبارات حيال هجوم محتمل، والدعوة إلى التنسيق بين الأطراف المختلفة.

لذلك، فإنَّ استنفار القيادة المركزية للقوات الأمريكية وحشدها لم يكن كافياً، بالرغم من ارتفاع مستوى التهديد الأمني لهدف معروف، وهذا يرقى إلى (إهمال القيادة) بكل تأكيد.

ومع أنَّ الخطأ لم يكن خطأه، فإنَّ الجيش الأمريكي - بسبب غياب التواصل مع البيت الأبيض - لم يكن مستعداً بما فيه الكفاية لمواجهة هجوم شامل على الولايات المتحدة.

ونتيجةً لذلك؛ عاش قادة سلاح الجو حالة من الفوضى يوم الحادي عشر من سبتمبر. فقد قال قائد (نوراد) لمنطقة نيويورك وواشنطن إنَّ بعض القادة في (نوراد) اعتقدوا أنَّ هجمات الحادي عشر من سبتمبر كانت جزءاً من المناورات العسكرية، وقال العقيد روبرت مار: «كان مفترضاً أن تكون المناورات العسكرية ردّاً على الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر¹³³، لكنَّ الوقود والصواريخ في الطائرات الحربية كانا في حدودهما الدنيا».

أضف إلى ذلك أنَّ مسؤولي (نوراد) الآخرين كانوا غير متأكدين إن كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر حقيقية، أو جزءاً من المناورات العسكرية¹³⁴. ونتيجةً لذلك؛ فقد كانت الاستخبارات الأمريكية والأجنبية تتحدث عن هجوم إرهابي كبير على مدينة نيويورك، وتقول إنَّ مركز التجارة العالمي هو الهدف الرئيس، في حين كان سلاح الجو الأمريكي منشغلاً في مناورات عسكرية قرب الحدود الروسية. لقد كان سلاح الجو الأمريكي في حالة استنفار قصوى في الأجواء الأمريكية كلها، بدءاً باليوم العاشر من شهر سبتمبر فصاعداً، ومع ذلك فإنَّه لم يتلقَّ أي معلومات عن تهديد كبير وشيك داخل مدينة نيويورك.

لو أنّ سلاح الجو تلقى معلومات وتعليمات أفضل لاستطاع أن يفعل أكثر من مجرد إرسال طائرة مقاتلة واحدة إلى مانهاتن، وأخرى إلى نيويورك، ولكان أطلق طائراته المقاتلة كلها لإسقاط الطائرات المختطفة بسرعة¹³⁵، ولا شك في أنّ العمل العسكري الاستباقي كان جاهزاً؛ ففي ثمانينيات القرن الماضي حلقت طائرة صغيرة فوق البيت الأبيض، فنُصبت على سطحه صواريخ لإسقاط أي طائرة تقترب منه مستقبلاً، وقبل شهرين من هجمات الحادي عشر من سبتمبر اجتمع قادة الدول الثماني الكبرى في مؤتمر القمة الاقتصادية في مدينة جنوة الإيطالية، وتحسباً لاحتمال إسقاط طائرة على البناية التي تستضيف المؤتمر، فقد نُشرت الصواريخ المضادة للطائرات في أنحاء المدينة، إلى جانب حماية جوية كبيرة من طيران حلف النيتو، وتأسيساً على ذلك، ألم تستدع هذه المعلومات الاستخباراتية كلها نصب بطارية صواريخ مضادة للطائرات على سطح مركز التجارة العالمي أيضاً؟

لو حدث ذلك لكان عملاً بسيطاً غير مكلف، وبدلاً من ذلك أسىء استخدام أقوى قيادة عسكرية على وجه الأرض؛ بإبقائها خارج الدائرة، وحرمانها من المعلومات المتعلقة بتهديد خطير لسيادة الولايات المتحدة. وهذا دليل - لا جدال فيه - على فشل القيادة عسكرياً.

أما المستوى الثاني (لإهمال القيادة)، فيتعلق بالفشل في تنسيق رد موحد مناسب بين الاستخبارات الأمريكية وسلطات تنفيذ القانون؛ فقد تطلب التنسيق الكبير بين وكالة الاستخبارات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي وجود «قيادة سيطرة» من البيت الأبيض، لكنّ هذا التنسيق بين الوكالات لم يتحقق بالرغم من الدعوى الملحة في شهر أغسطس عام 2001م.

مجمل القول أنّ هجوم الحادي عشر من سبتمبر كان (فشلاً تنظيمياً) لا فشلاً استخباراتياً¹³⁶، كما يقول جون أركويلا من جامعة الدراسات البحرية.

لننتقل الآن إلى مناقشة توقيت التحذيرات.

تقول لجنة تحقيق مشتركة من مجلسي الشيوخ والنواب¹³⁷ إنّ مصدرًا استخباراتياً أفاد في شهر مارس عام 2001م أنّ مجموعة من ناشطي تنظيم القاعدة كانت تخطط لتنفيذ هجوم لم يُحدّد على الأرض الأمريكية، وأنّ أحد هؤلاء الناشطين يعيش في الولايات المتحدة.

وفي شهر إبريل من عام 2001م علمت الاستخبارات الأمريكية أن ناشطين إرهابيين في ولايتي كاليفورنيا ونيويورك كانوا يُخططون لهجمات في هاتين الولايتين. وفي المدّة الواقعة بين شهري مايو ويوليو من عام 2001م ذكرت وكالة الأمن القومي أنها رصدت (33) محادثة - على الأقل - تشير إلى هجوم إرهابي وشيك، ولكن لم يظهر أن هذه الوكالة تمتلك معلومات مؤكدة يمكن أن تُحدّد المهاجمين، أو عددهم، أو مكان الهجوم وزمانه¹³⁸. وفي شهر مايو من عام 2001م علمت الاستخبارات أن أتباع أسامة بن لادن يُخططون للتسلل إلى الولايات المتحدة عن طريق كندا؛ لتنفيذ عملية إرهابية باستخدام مواد شديدة الانفجار، وقالت وزارة الدفاع إن سبعة أفراد مرتبطين بتنظيم القاعدة قد غادروا مواقع مختلفة متوجهين إلى كندا وبريطانيا والولايات المتحدة¹³⁹.

في مطلع شهر مايو كانت الاستخبارات الأمريكية قد جمعت أدلة كافية تُثبت أن مجموعة إرهابية شرق أوسطية تُخطط لتنفيذ هجمات على معالم أمريكية رئيسية، من ضمنها مركز التجارة العالمي، وهذا يتزامن تحديداً مع تحذير من الدكتور فيوز بوجوب مواجهتي للدبلوماسيين العراقيين، والضغط عليهم للحصول منهم على أي معلومات تتعلق باختطاف طائرات.

وفي شهر يونيو من عام 2001م حصل مدير الاستخبارات المركزية على معلومات مفادها أن ناشطين رئيسيين في تنظيم أسامة بن لادن قد اختفوا، وأن آخرين يستعدون لعمليات استشهادية¹⁴⁰.

وفي يوليو من العام نفسه قال مدير الاستخبارات المركزية إن شخصاً عاد من أفغانستان مؤخراً أفاد بأن الجميع يتحدثون فيها عن هجوم محتمل، ولاحظت الاستخبارات الأمريكية أن ابن لادن قد صعد حملته الدعائية للترويج لفكر تنظيم القاعدة.

وفي شهر أغسطس رفع ريتشارد كلارك مذكرة إيجاز يومي إلى الرئيس بوش، أكد فيها خطورة تهديد تنظيم القاعدة. وفي اليوم السابع أو الثامن من شهر أغسطس اتصلت بمدير مكتب النائب العام جون آشكروفت ومكتب مكافحة الإرهاب في وزارة العدل، طالبة إعلان استنفار عاجل في وكالات الاستخبارات كلها لجمع أي معلومات عن احتمال اختطاف طائرات، و (أو) تفجيرها، وقد وصفت هذا التهديد بأنه وشيك، ويُحتمل وقوع خسائر بشرية كبيرة،

وقلت إنَّ مركز التجارة العالمي قد يكون هو الهدف المتوقع. وفي اليوم السادس من شهر أغسطس اعتقلت سلطات البحرية الأمريكية زكريا موسوي في مدينة مينابوليس بولاية مينيسوتا.

في اليوم الرابع من شهر سبتمبر عام 2001م بعث مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينابوليس ببرقيات عاجلة عن التحقيقات مع موسوي إلى كلٍّ من: الاستخبارات الأمريكية، وإدارة الطيران الفيدرالي، والشرطة السرية، ووكالات فيدرالية أخرى في واشنطن، وبالرغم من التحذيرات العاجلة من مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينابوليس عن احتمال تورط الموسوي في مؤامرة إرهابية، فإنَّ النائب العام جون أشكروفت رفض طلباً بالحصول على إذن تفتيش من محكمة الاستخبارات السرية في واشنطن¹⁴¹ لاقتحام حاسوب موسوي الشخصي.

وأخيراً، وفي اليوم العاشر من شهر سبتمبر عام 2001م اعترضت وكالة الأمن القومي مكالمتين بين أفراد في الخارج، تشيران إلى احتمال وقوع هجمات إرهابية، ولم تُترجم هاتان المكالمتان إلى الإنجليزية، وتُعمَّمان على الجهات المعنية إلا في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر عام 2001م، ولم تُشر هاتان المكالمتان إلى نوع الهجمات المحتملة، ولم يتضح إن كانت لهما علاقة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر¹⁴².

وبالمقاييس كلها، فقد كان أداء الاستخبارات في أعلى مستوياته؛ ما ساعدها على توقع التهديد القادم من تنظيم القاعدة.

يثير كل ما تقدم تساؤلات خطيرة عن دور القيادة المركزية في البيت الأبيض، وعن الأسباب التي حالت دون تداول هذه المعلومات بين الوكالات. لقد حذّر مجتمع الاستخبارات من أن هجوماً إرهابياً على وشك الوقوع، وكانت هناك مناشدات كثيرة للتنسيق والتخطيط الاستباقي، وفي ذروة الإحباط بذلت الاستخبارات جهداً عظيماً لكسر الجمود، ومخاطبة وزارة العدل مباشرةً.

ولسوء الطالع، فإنَّ سلطات تنفيذ القانون في وزارة العدل لم تتلقَّ أي دعم قيادي من مكتب النائب العام، وكان هذا النوع من التفويض عالي المستوى مطلوباً بين الاستخبارات وسلطات تنفيذ القانون، وهما تؤديان مهام مختلفة. وباستثناء ما قام به مكتب التحقيقات الفيدرالي بمدينة مينابوليس، فقد كانت استجابة وزارة العدل معدومةً.

أما بالنسبة إلى تبادل المعلومات الاستخباراتية فقد استمر بانتظام، وجرى الاتصال بسلطات تنفيذ القانون في الوقت المناسب، ولكن لم يحدث أي شيء.

لقد تخلت قيادة السيطرة عن دورها بكل بساطة، وفشل قادة السيطرة في حشد الموارد عن طريق الوكالات المختلفة لتطبيق إجراءات الحماية الوقائية الأساسية. لا جدال في أن كل شيء كان يشير إلى حدوث فشل قيادي وإهمال قيادي كبير، كما حدده الجنرال كلارك والمؤسسة العسكرية الأمريكية.

تشمل الحجة الثالثة عن إهمال القيادة فشل البيت الأبيض في تحمل المسؤولية الكاملة بعد الحادي عشر من سبتمبر؛ فعندما تحدث أزمة فإن الشعب الأمريكي يتوقع من قادته أن يتصدوا للوضع، ويتحملوا مسؤولياتهم، ويستخدموا سلطاتهم الكاملة، وكما يقول الرئيس الأمريكي السابق هاري ترومان: «هنا يكمن بيت القصيد».

لقد كان أداء الرئيس بوش، بوصفه رئيس الأركان، في أسوأ حالاته في بداية الهجوم؛ ففي اجتماع في مدينة أولاندو بولاية فلوريدا، يوم الثاني عشر من شهر سبتمبر، سأله أحد الشباب: «السيد الرئيس، لقد فعلتم الكثير لأجل هذا البلد. ولكن، كيف شعرت عندما تناهى إلى مسامعكم هذا الهجوم الإرهابي؟».

الرئيس بوش: «حسنًا حسنًا يا جوردان. لن تُصدّق كيف كان شعوري عندما سمعت بالهجوم الإرهابي، كنت يومها في فلوريدا، كنت في فلوريدا عندما اتصل بي كبير الموظفين أندرو كارد، في الحقيقة كنت أجلس في أحد الفصول المدرسية أتحدث عن برنامج قراءة ناجح، كنت أجلس خارج الفصل بانتظار الدخول، ثم شاهدت طائرة ترتطم ببرج، أنت تعرف؛ كان التلفاز يعرض الأخبار؛ فقلت، وأنا طيار سابق: يا له من طيار فاشل، ثم قلت: لا بُدَّ أنه كان حادثًا رهيبًا»¹⁴³.

من الواضح أن تصريح الرئيس كان غير مترابط؛ فقد ترجم سؤال الشاب: «كيف شعرت عندما تناهى إلى مسامعكم هذا الهجوم الإرهابي؟» إلى: «في أي حالة كنت عندما سمعت بالهجوم الإرهابي؟». ثم حشر اسم ابن عمي أندرو كارد عشوائيًا في تعليقاته، ولم يُضف شيئًا. كان مثل هذا الخطاب المفكك متوقعًا، كما لاحظ الذين راقبوا أداء الرئيس عن قرب.

[في هذا التصريح اعترف الرئيس بوش بمعرفته بشريط الموساد المصور عن أول طائرة ارتطمت بالبرجين. وهذا الفيديو دليل مهم على معرفة إسرائيل السابقة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر. انظر الفصل السابع].

كانت هذه فضيحةً للبيت الأبيض، فقد بذل القادة الجمهوريون أقصى جهودهم للحيلولة دون إجراء تحقيق أطول مدّة ممكنة؛ لتجنب الانتقادات بسبب فشلهم السابق للهجمات. وعندما شكّلت لجنة التحقيق أخيراً خصّص البيت الأبيض ميزانيةً لا تتناسب - في أي حال - مع أي تحقيق جادّ في حادث خطير مثل هذه الهجمات.

ومن المعروف أنّ اللجان رفيعة المستوى تُعدّ علامةً تجاريةً للحكومة الاتحادية، فعند ظهور قضية يصعب على الكونغرس التعامل معها يجري تعيين لجنة من المسؤولين البارزين في كلا الحزبين لمناقشة هذه القضية، لكنّ الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني لم يرغباً في تأدية أي دور في تحقيقات الحادي عشر من سبتمبر. وفي الحقيقة، فإنّ تشيني اتصل برئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ توم داشلي (من الحزب الديمقراطي عن ولاية داكوتا الجنوبية)، وطلب إليه حصر التحقيقات في فشل التواصل بين الوكالات¹⁴⁴.

وفيما يخص ذلك صرّح داشلي لمحطة سي إن إن الإخبارية بالقول: «أعرب نائب الرئيس عن قلقه من أنّ أي مراجعة لما حدث يوم الحادي عشر من سبتمبر، سوف تتطلب تخصيص موارد وموظفين على حساب الحرب على الإرهاب».

وبعد فشله في وقف التحقيقات حاول البيت الأبيض حرمان لجنة التحقيق من الأموال اللازمة. وفي نهاية المطاف خصص لها (11) مليون دولار، وهو مبلغ تافه مقارنةً بما يصرفه الكونغرس على قضايا أقل أهمية.

عندما تشكّلت اللجنة حرص البيت الأبيض على تعيين أحد مسؤوليه لتولي وظيفة مدير العاملين في اللجنة. كان هذا المسؤول هو فيليب زليكو، أحد زملاء كوندوليزا رايس المقربين، وقد ألفاً معاً كتاباً عن السياسة الخارجية، وعيّنته رايس في فريق بوش الانتقالي عام 2000م. أما زليكو شخصياً، وهو أكاديمي متميز إلى حدّ ما، فقد أعدّ ورقتي بحث للفريق، تناولت إحداها كيفية إدارة التهديدات الإرهابية، وتناولت الثانية تبرير أي غزو استباقي للعراق،

بعبارة أخرى، لقد كان زيليكو مشاركاً في السياسات التي أدت إلى إهمال قيادي، وإلى غزو العراق؛ لذلك، ليس مستغرباً أن تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر لم يتضمّن الكثير من المعلومات الواردة في هذا الكتاب.

لم يعلن الجنرال كلارك صراحةً أن الرئيس بوش وقع في إهمال قيادي متعمّد من أجل تبرير الحرب على العراق، وهو لا يستبعد احتمال أن يكون مسؤولو البيت الأبيض الكبار قد أظهروا عجزاً كبيراً في قيادتهم التنظيمية، وأن يكونوا قد استخدموا الحرب على العراق غطاءً لإخفاء هذا العجز.

وهنا اختلف مع الجنرال كلارك في تفسيراته الرائعة، وأتخذ موقفاً أقوى؛ فأنا أوافقه الرأي بحدوث إهمال قيادي أفضى إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ولكنني أعلم علم اليقين أن القادة الكبار تجاهلوا عمداً التحذيرات التي أطلقتها مصادر الاستخبارات الأمريكية والأجنبية، وفشلوا في تفعيل الإجراءات الوقائية الأولية لحماية مركز التجارة العالمي، الذي حُدّد على أنه الهدف الرئيس للهجوم، وهذا يثير أحد أكثر الأسئلة الخلافية التي ترددت في أوساط البحث عن الحقيقة منذ سنوات؛ وهو: هل سمحوا بحدوث الهجمات، أو ساعدوا على جعلها تحدث من أجل استغلال الغضب الشعبي لعدم مخطط الرئيس بوش السري لغزو العراق؟ وبوضوح أكثر: هل مارس البيت الأبيض (الإهمال القيادي) عن قصد لتسهيل حدوث هجوم بيرل هاربر جديد لتبرير الحرب على العراق؟ أعتقد، من دون تردد، أن الجواب هو: نعم.

بدائل الحرب، دواعي هجمات الحادي عشر من سبتمبر

في ظل تصاعد الدعم العالمي للسلام قبل الحادي عشر من سبتمبر، لم تكن فكرة إعلان الحرب على صدام حسين مُبررةً من دون استفزاز كبير؛ فقد كان المجتمع الدولي متحمساً للتعاون، وإعادة الإعمار؛ لذا فإن أي عدوان أمريكي سيكون عملاً مارقاً، ولن يتمكن من جمع تحالف للراغبين يكون مستعداً لتحمل التكاليف وحشد الجيوش، وبذلك يصبح مخطط الحرب في حكم الميت.

من جانبها، حدّدت جهات في الاستخبارات الأمريكية نقاط التوتر المحتملة مع العراق مستقبلاً، وتحركت لتجسيدها، وقد عالج مشروع السلام الأهداف الأمريكية الرئيسة كلها في العراق، بما في ذلك بعض الأهداف التي لم تأخذها إدارة بوش بالحسبان سابقاً.

كان البيت الأبيض على علم بالتطورات المتعلقة بتنفيذ بغداد تلك الأهداف، وبالتراجع السريع لسياسة العقوبات الأمريكية؛ وهذا يُفسّر لماذا كان المعسكر المؤيد للحرب بحاجة إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد أراد المحافظون الجدد تحويل حكومة صدام حسين إلى نمر من ورق (عدو خارجي لإثارة الكراهية الشعبية، والتغلب على المعارضة الدولية للحرب).

لقد خسر المحافظون الجدد المبررات القانونية كلها للحرب؛ لذلك كان عليهم إيجاد مُبرر من أي نوع، وقد أعطاهم أسامة بن لادن هذا المُبرر بمؤامرة اختطاف الطائرات، ومهاجمة برججي مركز التجارة العالمي، وقبل هذه المرحلة تحديداً كانت إدارة بوش قد فقدت أي مُبرر للحرب. كان ذلك مستحيلاً.

ولكن، ما هدف السيطرة على النفط العراقي، على أي حال؟ لقد حاول نائب الرئيس ديك تشيني جاهداً طوال سنوات عدّة الحفاظ على سرية اجتماعاته السابقة للعدوان مع مديري شركات النفط الأمريكية، ولكن حدثت تسريبات مفادها أنّ الاجتماعات تركزت على بحث احتياطات النفط العراقي، وتغيير العقود الحالية مع شركات النفط الأجنبية.

وفي شهادة أمام الكونغرس نفى مديرو شركات النفط الأمريكية انعقاد مثل هذه الاجتماعات مع تشيني، لكنّ البيت الأبيض أكد انعقادها في وثيقة أصدرها في نهاية عام 2005 م¹⁴⁵.

وقد طرحت أيضاً مسألة خط نفط بحر قزوين الذي يمر بكازاخستان عن طريق إيران، ولأنّ هذا الخط يُعدّ منفذاً رئيساً للنفط الروسي؛ فقد مثل حساسيةً جغرافيةً في العمليات العدائية جميعها بين إيران والغرب، ومن المحتمل أن يكون كبار المسؤولين قد أرادوا تركيز القواعد العسكرية في العراق، على الحدود مع إيران؛ للحد من طموحات طهران للسيطرة على إمدادات النفط، وإذا نظرنا إلى خريطة القواعد العسكرية المحيطة بإيران، سيتضح لنا أنّهم أرادوا ذلك.

وخلالاً لأمنيات وكلاء شركات النفط في الكونغرس، وبدلاً من ضمان ثروة ضخمة لحملة الأسهم، فقد تسببت العقوبات في تحطيم طموحاتهم؛ إذ دُمّرت خطوط النفط والبنية التحتية، وفاقم الوضع عمليات التخريب التي كانت تقوم بها المقاومة الوطنية العراقية؛ ولذلك فإنَّ نسبةً كبيرةً من الشعب العراقي اقتنعت أنَّ الولايات المتحدة غزت العراق لاحتلال منابع النفط؛ ما جعل مجموعات ناقمة تلجأ إلى تحطيم البنية التحتية، لكيلا تسمح للولايات المتحدة بسرقة ثروتها الوطنية.

عدم الثقة بواشنطن

يعتقد معظم الناس حول العالم أنَّ الشعب الأمريكي لم يعرف حقيقة ما جرى في الحادي عشر من سبتمبر؛ لذا فقد أُنشئت حركة حقيقة الحادي عشر من سبتمبر؛ إذ جمع مواطنون عاديون المعلومات التي حاولت الحكومة إخفاءها، ثم نشرها في كتاب، وفي موقع الجدول الزمني للإرهاب «Terror Timeline» في شبكة الإنترنت.

بالنسبة إليّ، فإنَّ مشاهدة هذا الموقع تثير أحزاني وأشجاني؛ لأنَّني أعرف - من خبرتي وتجاربي الشخصية- كيف أنَّ موجات التحذيرات السابقة كانت تسري في الأوساط الاستخباراتية (قبل الحادي عشر من سبتمبر) مثل النار في الهشيم، وها أنا ذا أتذكَّر محاولتي الفاشلة الوصول إلى وزارة العدل بطلب عاجل من ضابط وكالة الاستخبارات الأمريكية المسؤول عني، كنت أعرف أنَّ البيت الأبيض قد روج لفكرة الحرب على العراق قبل أشهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ لأنَّني أمرت شخصياً أن أُوجَّه هذه التهديدات إلى العراق في حال حدث هجوم الحادي عشر من سبتمبر المفترض، وفشلت بغداد في إبلاغ الولايات المتحدة بأي معلومات استخباراتية كانت لديها.

في صبيحة يوم اعتقالي كان الجمهوريون المؤيدون للحرب يشعرون بالتهديد من شيء آخر؛ هو امتلاكي المعلومات الكاملة عن جهود العراق للتعاون مع التحقيقات الخاصة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وتجاهل الإدارة الأمريكية هذه الجهود.

لقد كنت دائماً أُسمّي الأشياء بأسمائها، وكنت مستعدةً لقلب الطاولة، والإعلان عن أنّ الحرب على الإرهاب كان خدعةً كبيرةً، وأنّ رفض البيت الأبيض السلام كان خداعاً للجماهير. لقد أيقن أفراد مجتمع الاستخبارات، الذين شاهدوني وأنا أعمل في الميدان مدّة عشر سنوات، أنّني قد أعلن ذلك على الملأ.

